قصص القرآن

نبأ ابني آدم والغراب

قلم: أحمد بهجت

ريشة: مصطفى حسين

دار الشروق

الطبعة الأولى
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

الطبعة الثانية
١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

الطبعة الثالثة
١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

© دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسنى - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٣٣٣ فاكس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

بدأت الحياةُ الإنسانيةُ بِهبُوطِ آدمَ وحـــواّءَ إلـــى الأرضِ ، كـانت حوّاءُ تلدُ في البـطنِ الـواحـدِ تَـوأمينِ ذكـراً وأُنثى . . فـإذا مـر عَـامٌ ولدتْ في البطنِ الثاني ولداً وبنتاً . .

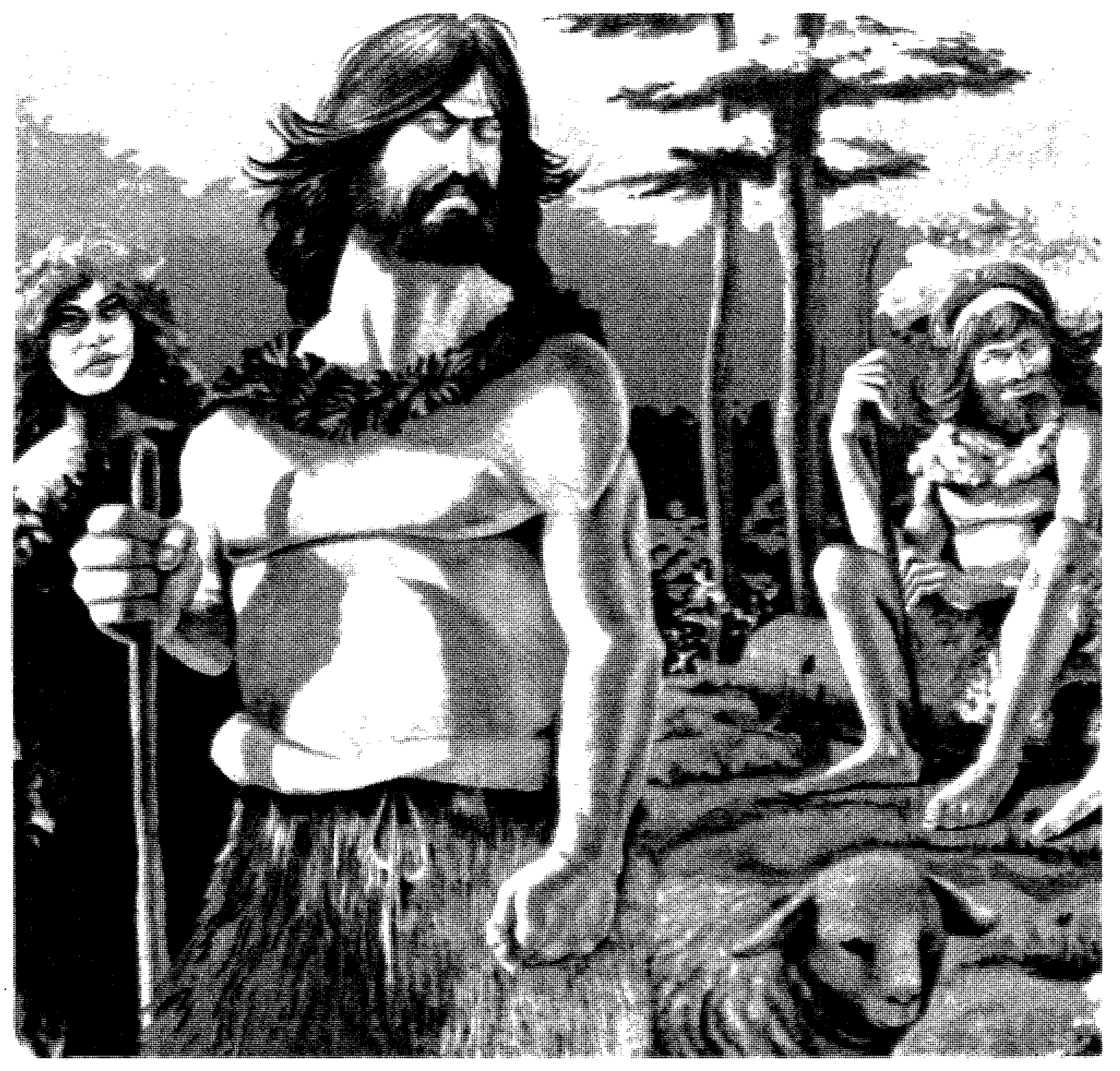
ولم يكنْ يَحِـلُّ للولدِ أَن يتـزوّجَ من شَقيقتِـه التي وُلِـدتْ معـه في نفسِ البـطنِ ، إنما كـان يَستطيـعُ الزَّواجَ من ابنةِ البطنِ الثانيةِ ، باعدَ الله بينهُما كما باعدَ بين الأقاربِ . .

في ذلك الزمـانِ البعيدِ ، حين كـان بالوُجـودِ آثنانِ من أَبنـاءِ آدمَ . . وقعتْ هذه القصةُ لهما . .

تَـزوجَ الولـدُ الذي وُلِـدَ في البـطنِ الأولِ بـالبنتِ التي وُلـدَت في البـطنِ الثاني . . وتَزوجَ الـولدُ الـذي وُلِدَ في البـطنِ الثـاني بـالبِنتِ التي وُلِـدَت في البطنِ الأولِ . .

وكـان أَحدُ الأخـوينِ غيرَ راضٍ عن زَواجِـهِ حيث كـان يـرىٰ زوجـةَ الآخـر أَجملَ من زوجتِه .

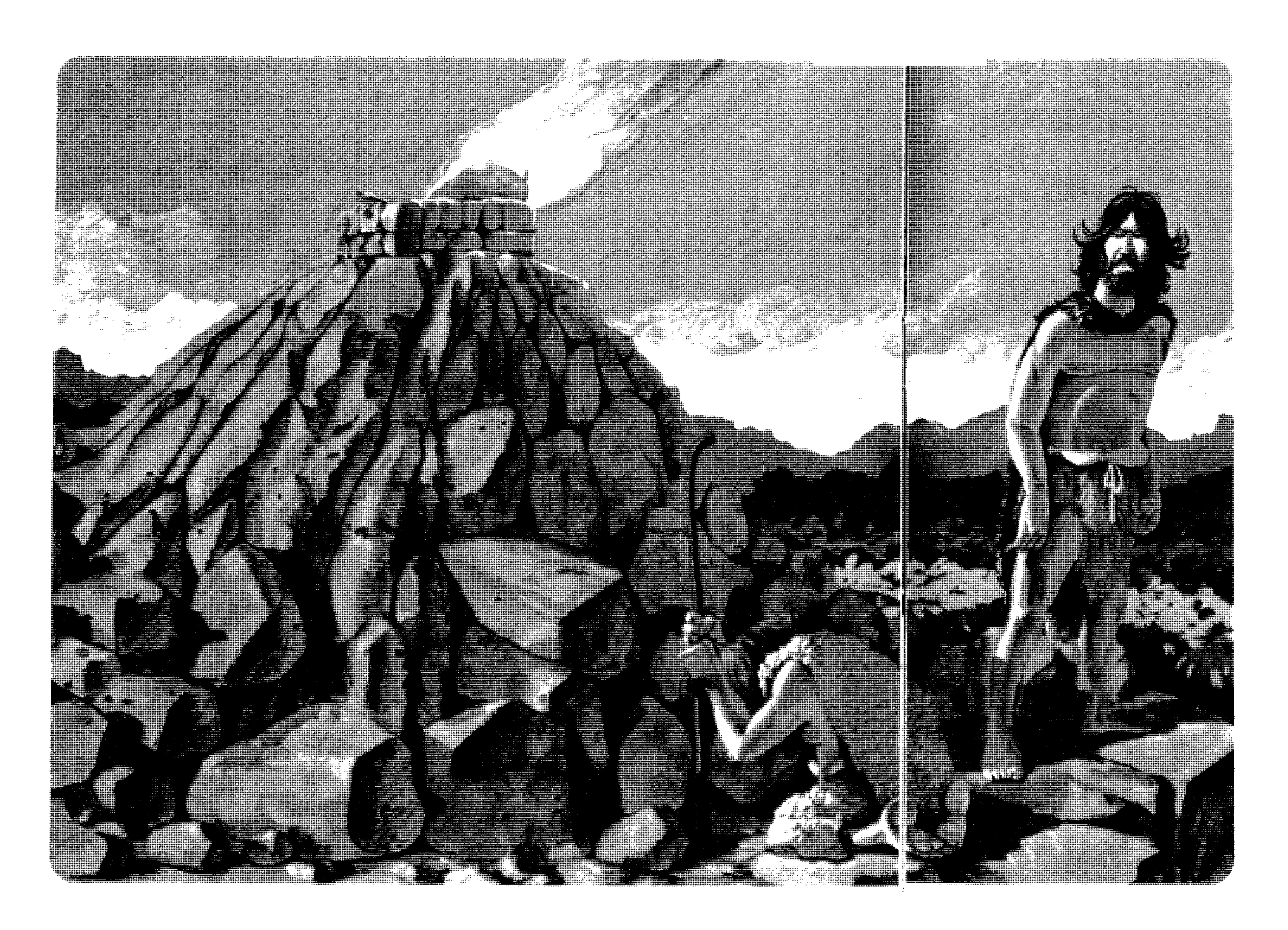




وبدأَ هذا الأخُ يَحِسُّ بالكَرَاهِيـةِ نحو أخيهِ .

كـان آسم هذا الأخ قـابيـلَ . . أمـا الأخ الثاني فكانَ آسمهُ هابيلَ . .

كـان قـابيـلُ قـويَّ الجسـدِ حـادَّ المَـلامِحِ ، ولم يكنْ راضيـاً عن حظِّه في الزَّواجِ ، وبالتالي فقد كـان يَحسِدُ شَقيقَه هابيـلَ . . وبقدرِ مـا كان قـابيلُ عَنيفاً وصارِماً كان هابيلُ وَديعاً وَلطيفاً ، وكـانتِ المشاعـرُ الداخليـةُ التي تملأُ قلبَ كـلٍّ واحـدٍ منهمـا تَنعكِسُ على وجهِه وتَظهرُ على ملامِحِه . .



وذات يومٍ أَمر آدمُ ولـديهِ أن يُقـدِّما قُرباناً لله . .

سأَلاهُ : ماذا يعني بالقُربانِ ؟

قـال آدمُ : القُـربـانُ هـديـةُ شُكـرٍ إلى الله . . إذا تقبَّلَهـا الله سُبحـانَـه وتعـالىَ ، فسوفَ تَنـزِلُ من السماءِ نـارٌ تَلتهِمُهـا . . وسيكـونُ هـذا إيـذانـاً بِقُبـولِ الله لهـا . . آنصرفَ الأخـوانِ وجاءَ عيدُ الشُّكرِ . .

كـان قـابيـلُ غَنياً ولكنَّـه لم يكنْ كَـريمـاً . . وراحَ يُفكِّـرُ مـاذا يُقـدِّمُ للسماءِ . . وخشِيَ على كِباشِه وعُجولِه وقـرَّر أن يُقـدِّمُ بعضَ أَعـوادِ القمحِ الضَّعيفةِ التي قَدَّرَ بينه وبين نفسِه أنها لا تَصلُح لِصناعةِ الخُبزِ . . كان سَيـرميها عـلى أَي حـالٍ . . لـم يـكـن لِيستَخدِمَها . . هكذا فكَّر قابيلُ .

أَما هابيلُ فكان رغمَ فَقرِه كَريماً . . حيثُ قـرَّر أن يُقـدِّم لِلقُـربـانِ أَسمنَ الكِباشِ .

وتوجَّهَ قابيلُ وهابيلُ إلى الجبلِ . . صَعِدا جُزءاً منه ووضعَ كلُّ واحدٍ منهما قُربانَه . .

وضعَ هابيلُ كِبشَهُ السَّمينَ . .

ووضـعَ قـابيــلُ حفنـةً من أَعــوادِ القمحِ . .

وآنحــدرا من الجبـلِ وَوقفـا عنـد سَفحِه يَنتظِرانِ . .

هبطتْ من السماءِ نـارٌ أَكلتْ قُربـانَ هابيلَ . . وظلَّ قُربانُ قابيلَ على حالـهِ لم يمسَسْه شيءٌ .

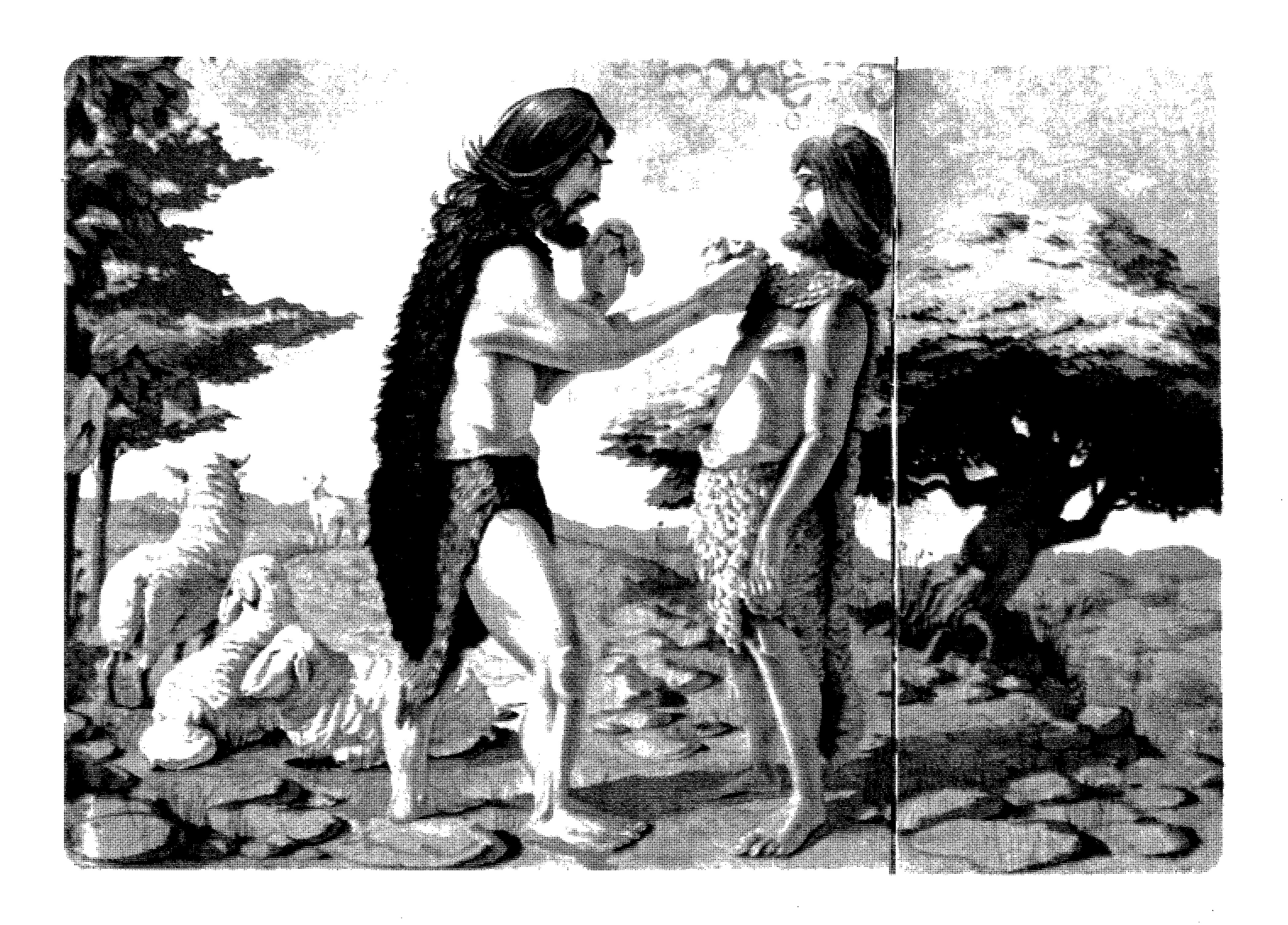
آنحنى هابيلُ يَسجُد لله . .

ووقفَ قابيلُ يُحدِّقُ في هابيـلَ . .

ومن أَعماقِ رُوحِه تَصاعدتْ مَوجةٌ من الغضبِ والكَراهِيةِ . .

وأَدركَ قابيلُ أَن الله يُحبُّ أَخاهُ أَكثَرَ مما يُحبُّه . . أَدركَ أن الله قد تَقبَّلَ من أَخيهِ ولم يَتقبلْ منه ، وبَدلاً من التَّوبةِ المُطهِّرةِ وإصلاحِ الذاتِ ، آحترقَ قلبُ قابيلَ بكراهيةٍ عَميقةٍ نحو أَخيهِ . . وَوسوسَ إليه الشيطانُ أن يَقتُلَه . . كانتْ نَظراتُه على البُعدِ تَكشِفُ قاعَ رُوحِه التي تَموجُ بأَفكارِ الشرِّ والجَريمةِ .

آنفردَ قابيلُ بشَقيقِه وسأَلَه : لماذا تَقبلَتِ السماءُ قُربانَك ولم تَتقبَّلْ هَدِيَّتي . . قال هابيلُ : لا أعرفُ لماذا حدثَ ذلك ، ولكنِّي أَعتقدُ أن قلبكَ ليس صافياً لله ، لو صَفا قلبُكَ لله لَتقبَّلَ الله عَملكَ وقُربانَك . .



قال قابيلُ : ﴿ لَأَقْتُلَنَّكَ ﴾ .

قال هابيلُ : لا تَغضبْ يا قابيلُ ، ﴿ إنَّمَا يَتَقَبَّلُ الله مِنَ المُتَّقِينَ ﴾ . . لو نَدمْتَ الآن وعُدتَ إلى الله فسوف يَتقبَّلُ منك .

قال قابيلُ : ﴿ لأقتلنَّك ﴾ .

قال هابيلُ : ﴿ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ . . إِنِّي أَخَافُ آللهَ رَبَّ آلْعَالَمِينَ ﴾ .

قابيلُ (ثائراً) : سأَقتُلُك ذات يومٍ . . ثق أنني فاعلٌ .

هابيلُ : لن أُقاوِمَك لو حاولتَ قَتلي ، ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ آلنَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ آلظَّالِمِينَ ﴾ .

آنصرفَ قابيلُ ثائِراً ومضىَ يُفكِّر . .

أَحسَّ أنه في حاجةٍ إلى أن يسيرَ

طَويلاً حتى يُهدِّئ من نفسهِ الثائرةِ . .
كان الشيطانُ يُفكِّرُ معه ويَسيرُ جِوارَه أو يَنبُضُ في دمائِه ويُوسوِسُ إليه ويُزيِّنُ له فِكرةَ القتلِ . .

قال قابيلُ لنفسهِ : لقد آن الأوانُ لإزاحتِه من طريقي . . إن التَّخلُّصَ منه سوف يُكسِبُني أرضَه وزوجتَه . .

ومضى قابيلُ يسيرُ حتى آنتهى إلى شجرةٍ يرقُدُ جِوارَها حِمارٌ ميتٌ . . كان الحِمارُ قد مات منذ قليلٍ . . وهبطتِ الطيورُ الجارِحةُ عليه من كلِّ آتجاهٍ ومضتْ تَلتهِمُ لَحمَه . .

بعد ساعاتٍ قليلةٍ كان الحمارُ قد تحولَ إلى هيكلٍ عظميٍّ . . ووقفَ قابيلُ يرقُب المشهدَ . .

إن الصراعَ يَجري في كلِّ مكانٍ على الأرضِ ، فلماذا لا يَنقضُّ على شَقيقِه كما تَنقضُّ هذه الطيورُ الجارِحةُ على المأدُبةِ التي هيّأها موتُ الحمارِ . . .

آقتربَ قابيلُ أكثرَ من الحمارِ فطارتِ الطيورُ مُبتعدةً عنه . . تأمَّلَ قابيلُ الحمارَ . . .



تأمَّل فكَّه . . ألا يصلُح هذا الفكُّ سلاحاً يَتخلَّصُ به من أخيه ؟ مد يدَهُ وآنتزعَ فكَّ الحمارِ من الهيكلِ العظميِّ وحملَه ومضَى به .

قال لنفسِه : من يَدري . . قد يُخلِّصُني هذا الفكُّ من أخي !

فكَّر قابيلُ طَويلاً في جَريمتِه قبل أن يَرتكِبَها . . كان يعلمُ أن شقيقَه هابيلَ يحبُّ الطبيعةَ ، وكثيراً ما ينامُ في كهفٍ صخريٍّ تُطِلُّ فَتحتُهُ على الحَدائقِ .

قال لنفسِه : سوف تَحينُ فُرصتي

حين يدخلُ الكهفَ وينامَ . .

وجاءَ يومُ الجريمةِ . . ودخلَ هابيلُ إلى الكهفِ ونـامَ فيه كعـادتِـه . . كـان هـابيـلُ مُـرهَقـاً لم ينمِ الليلَةَ السـابقـةَ كُلَّها ، سهِرَ فيها إلى جوارِ زوجتِه التي كانت تتألَّمُ وتتهيَّأُ لميلادِ طِفلِها الأول ، وفي الصّبـاحِ المُبكـرِ صحبَ زوجتَـه وذهبَ بهـا إلى أُمِّهما حـواءُ ، لكي تلدَ عندها . . ثم ولدتْ ذكراً وبنتاً جميلينِ فيهما صفاءُ هابيلَ . .

آستراحَ هابيلُ أَخيراً وجاءَ إلى كهفِه الأثيـرِ ، وسُـرعـانَ مـا آستغـرقَ في النومِ . .

آنتـظرَ قابيـلُ حتى تأكـدَ أن شقيقَـه نـامَ ، ثم تسلّلَ إلى الكهفِ وهو يُشـدِّدُ قَبضَتَه على فكّ الحمارِ . .

كان ذهنُه يَموجُ بتيّارٍ من الشـرِّ الذي يَهُـزُّه هـزّاً رغم صـلابتِـه . . وكـان الشيطانُ قد أَقنعَه بفكرةِ القتلِ وسوَّلَها له حتى آنطبعتْ في قلبِه . .

وآقتـربَ الشـرُّ المسلَّحُ من الخيـرِ النائمِ ، آستغلَّ الشرُّ فرصةَ نومِ الخيرِ ورفـعَ يَده وهـوَى بهـا على شقيقِـه . . وتـدفَّقَ دمُ الشقيـقِ يَجـري عـلى الأرضِ . .

مات هابيلُ . .

سـكـنـتْ حـركـتُـه وآستـسـلَـمَ للموتِ . . أَحسّ قابيـلُ بالفـزعِ حين هَمدتْ حركةُ أَخيهِ تماماً وآستلقَى على ظهره ودمُه ينـزفُ . . توقَّفَ قـابيلُ عن ضربِ أخيهِ وهزهُ فوجـدَه لا يَتحركُ . . آمتلأَ قلبُه بخـوفٍ باردٍ ولم يعـرفْ ماذا يفعـلُ . . ناداهُ فلم يُجبْـه . . وحـدَّثـه فلم يَلتفِتْ إليه . . وأَدركَ قابيلُ أنه قتلَ شقيقَه . .



كـان هابيـلُ أولَ إنسانٍ يمـوتُ على سـطحِ الأرضِ ، وكـان مـوتُـه أولَ جـريمـةِ قتـلٍ تقـعُ في الـوُجـودِ الإنسانيِّ . . لَم يكن قد مات قبلَ ذلك من البشرِ أَحدٌ . .

وحارَ قابيلُ ماذا يفعلُ بجسدِ شَقيقِـه الذي سكنتْ حركتُه ، وحارَ قـابيلُ أين يُخبِّئُهُ ويُخفي جَريمتَه . .

وهكـذا حملَ قـابيـلُ جسـدَ شقيقِـهِ الميِّت هـابيلَ ومضى يَسيرُ به . . أَرادَ أَن يُخبِّئَـهُ في مكانٍ بعيـدٍ حتى لا يصلَ إليـه أحـدٌ . . لم يجدْ مكـانـاً يصلُح لذلكَ . .

ظـلَّ يسيـرُ حتى تعِبَ ، ثم مـزّقَ الهـواءُ صوتَ طـائرٍ يصـرُخُ ، أَفـزعتْـهُ الـصـرخـةُ ومـلأَتْ نفسَـه بِشُـؤْمٍ مجهولٍ . .

آلتفتَ القاتلُ فرأى في السماءِ غُراباً يـطيرُ وهـو يُمسِكُ بِمنقـارِه شيئـاً لـم يتبيَّنْه .

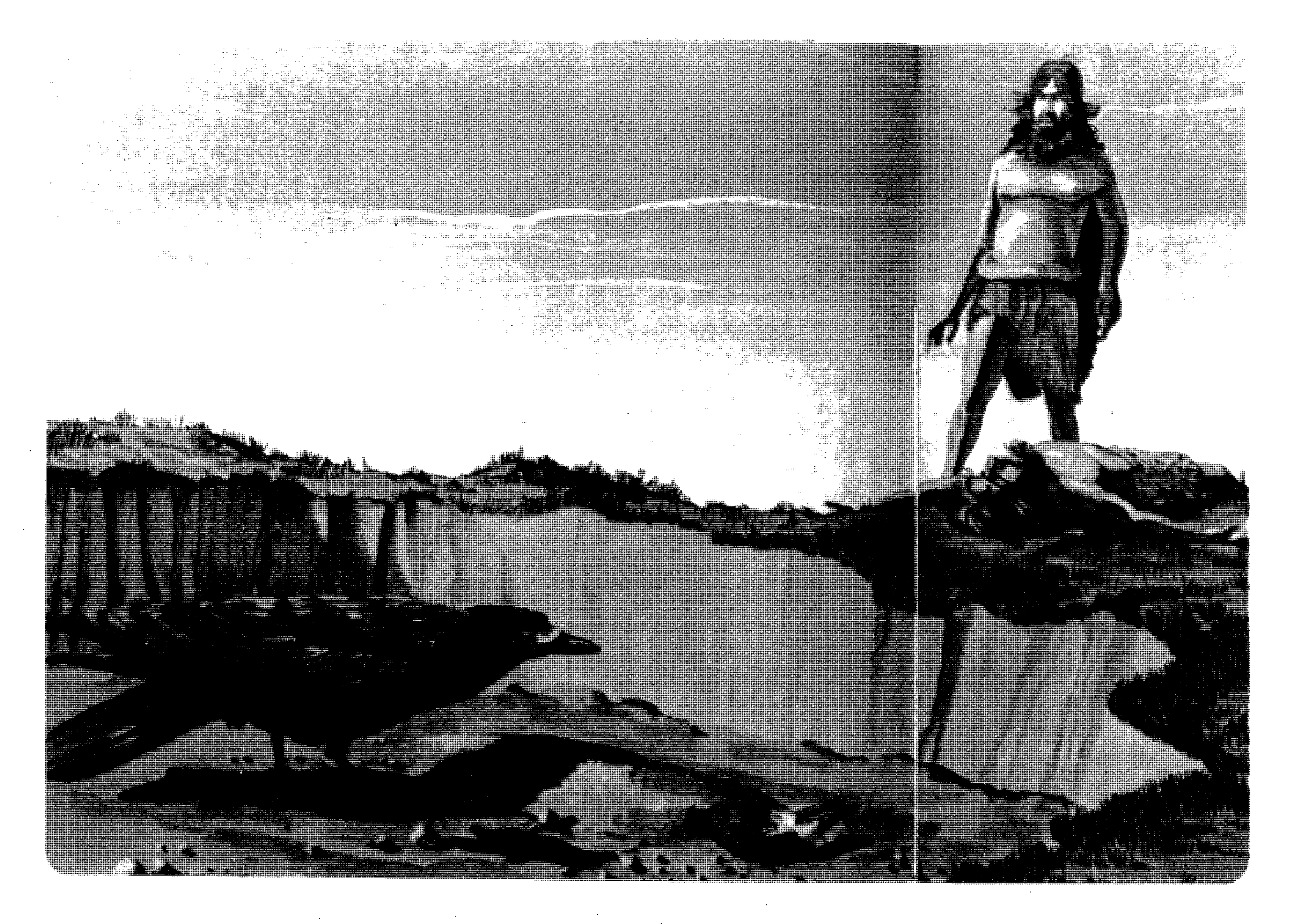
وزادتْ حِيـرتُـه وآشتـدَّ إحساسُـه بـالفزعِ . . وأَحسّ بِثقـلِ أَخيه كـأنـه يحملُ جبلاً ضخماً .

وقف قـابيـلُ ووضـعَ شقيقَـه على الأرضِ وهـو لا يعـرف مـاذا يفعـلُ أو كيف يتصرَّفُ . .

كـان حائِـراً تَمـوجُ نفسُـه بِمشـاعِـرَ مُـخـتـلِطَةٍ مـن الـخـوفِ والـرُّعـبِ والقلقِ . .

ثم آقتربَ الغُرابُ فرآهُ قابيـلُ يحمِلُ غُـراباً ميِّتـاً . . وضـعَ الغُـرابُ الحيُّ شقيقَـه الميتَ على الأرضِ وسـاوَى أَجنحتَـه وحفـر لـه حُفـرةً بِمنقـارِه وأَقـدامِه ، حتى إذا صنـعَ لأخيهِ لحـدَه





وقَبرهُ ، رفعهُ بِمنقـارِه وَوضعهُ بِـرفقٍ في قبره . ثم صرخَ صَرختينِ قَصيرتينِ كأنه يَبكيه وعادَ يهيلُ عليه الترابَ . . بعدها طارَ في الجوّ وهو يَصرخُ . .

وأَدركَ قـابيـلُ أن الله بعثَ إليــه من يُعلِّمُه دَرسينِ معاً في وقتٍ واحدٍ . .

أما أَحدُ الـدَّرسينِ فقد عَـرفَه قـابيلُ على الفورِ . .

أَما الدرسُ الثـاني فقد عَـرفَه قـابيلُ بعد ذلك بزمنٍ . .

لقد عجِزَ قابيلُ وحـدهُ عن دفنِ أَخيهِ رغم أنه قتلهُ ، ولولا الغُـرابُ ما عـرفَ كيف يُواري جسَدَهُ الهامد . .

قـال لنفسـهِ : لم أعـرفْ كيف أَدفُنُ أَخي ودفنَ الغُرابُ أَخاهُ . .

كـان هذا هـو الـدَّرسُ الأولُ الـذي تَعلَّمه قابيلُ . .

عَرفَ أنه كان أَقلَّ في ميزانِ الرحمـةِ من الغُـرابِ . . والأصـلُ أنـه سيـدُ الكائناتِ .

ونهضَ قـابيـلُ وحفـرَ حُفرةً لأخيـهِ ودَفنـهُ فيها ، ثم تـذكَّر صُـراخَ الغُـرابِ الحيِّ على الغُرابِ الميِّتِ فمزَّقَهُ النَّدمُ على جَريمتِهِ فأَصبحَ من النادِمينَ .

قال وهو يَنهـارُ على الأرضِ : ﴿ يَا وَيْلَتَـا أَعَجِـزْتُ أَنْ أَكُـونَ مِثْـلَ هَـذَا **ٱلْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي** ﴾ !

ٱنصَرفَ قَابيـلُ مُمتَقِعَ الـوجهِ مُتـرَعَ القلبِ بالنَّدمِ والهُمومِ .

وجـاءَ المساءُ ولم يعُـدْ هـابيـلُ . .

ومـرَّتِ الأمسِياتُ واللَّيـالي ولم يعُدْ هابيلُ . .

سأَل آدمُ قابيلَ : أَين ذهبَ هابيلُ ؟

قابيلُ : لست أَعـرفُ أَين ذهب . .

وقـــرأَ آدمُ في عينيِّ ٱبنـهِ خَـــطيئَتَـه . . وسأَلَه :

ــ قــابيلُ . . مـاذا فعلتَ بـأَخيكَ هـابيلَ ؟ إن الله لم يَتقبـلْ قُربـانَك . . ماذا فعلتَ بأَخيكَ ؟

وتذكَّر قابيلُ قُـربانَـه الذي تَجـاوزَتْهُ السماءُ . . تذكَّر كلِماتِ هابيلَ له . .

لقد أَشارَ يـومئذٍ إلى النَّـدمِ . . حثَّه عـلى النـدمِ حـين رفضتِ السمــاءُ قُربانَه . .

لو أَنه عرفَ ندمَ التَّوبةِ الجميلِ على الـذُّنـوبِ لمـا أَهلكَـه نـدمُ الخَـطيئـةِ الفاجعِ . .

وكـانَ هذا هـو الدرسُ الثـاني الذي تعلّمهُ قابيلُ . .

ٱنتهى الأمـرُ ولم تعدْ لهـذا الدرسِ قيمةٌ . . صار قابيلُ قاتلًا . .

ٱنتهى الأمـرُ وفقـدَ طُمـأْنينـةَ نفسِـه وتَمـزَّق سـلامُـه الـدَّاخليُّ وأَصبحَ من النادمين . . صارَ الندمُ هوخُبْزَهُ اليوميّ المُـر الذي قـدرَ عليـه أن يـأْكُلَه طِـوالَ حياتِه . .



خسِرَ قابيـلُ نفسَه بِسببِ جَـريمتِهِ ، وأَدركَ أن كـلَّ مَكاسِبِه من جـريمَتِـه لا تُسـاوي خِسارةَ نفسـه . . أَدركَ أنه من أَهــلِ النـارِ . . وأَدركَ أن شقيقَــه من أهــلِ الـنعيـمِ . . وزادَ إحـســاسُــه بالمرارةِ . .

وعرفَ آدمُ بما حـدثَ . . وزادَ ندمُ قابيلَ . .

في نفسِ الـوقتِ . . كــان أَبنــاءُ الشَّهيدِ هابيلَ يَكبُرونَ في السِّنّ . .

وكـان هذا إشـارةً إلى أَن الدُّنيـا مـا زالتْ تنجبُ الخيرَ وإن ملأَها الشرُّ . .



وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ
يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ۝
لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي
أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ۝ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ
فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ۝ فَطَوَّعَتْ لَهُ
نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا
يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ
أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ۝

صدق الله العظيم

